﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزّمّل: 7 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ثَمَراتُ الصَّلاةِ في اللَّيلِ إنَّما تظهرُ في النَّهارِ

لَمَّا بيَّن سبحانه مِن أوَّل السّورة إلى آخِرِ الآية السّادسة ما به صلاحُ الدِّين الَّذي هو عِصْمةُ الأمر، وبهِ صلاحُ الدَّارَيْن، وأظهَر ما للتَّهجُّدِ مِن الفضائل، فكان التَّقديرُ حتمًا: (فواظِبْ عليه؛ لتنالَ هذه الثّمرات)؛ قال مُعلِّلًا مُحقِّقًا لهُ؛ مُبيِّنًا ما به صلاحُ الدُّنيا الَّتي هيَ فيها المعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاح المقصودِ، وهو الدِّينُ، وهو الَّذي ينبغي له ﷻ؛ لئلَّا يكونَ كلًّا على النَّاس؛ ليُحصِّلَ مِن الرِّزْق ما يُعينُه على دينِه، ويوَسِّعُ به على الفقراء مِن غير ملَلٍ ولا ضَجَرٍ ولا كسَلٍ ولا مبالغةٍ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآيات[1]، وفي هذهِ الآياتِ أيضًا بيانٌ للدّاعي الخارجيِّ إلى قيامِ اللَّيلِ بعدَ بيانِ ما في نفسِهِ مِنَ الدّاعي[2]، وآيةُ: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ تعليلٌ في المعنى لجميعِ ما قبلَها مِن آياتٍ، فالرَّبُّ الكريمُ هو الَّذي أنعمَ بسَكَنِ اللَّيلِ الَّذي أمرَ بالتَّهجُّدِ فيهِ، والانتشارِ في النَّهارِ الَّذي أمرَ بالسَّبْحِ فيهِ[3]، فيكون ذلكَ تنبيهًا على وجوبِ شكرِهِ ﷻ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبۡحٗا﴾: (سبح): أصلٌ يدلُّ على السَّعي، ومِنْ ذلكَ: السّابحُ مِنَ الخيلِ، وهو الحسنُ مدِّ اليدينِ في الجَرْيِ[4]، والسَّبْحُ: المرُّ السَّريعُ في الماءِ، وفي الهواءِ[5]، والسَّبْحُ أيضًا: الفراغُ، والتَّصرُّفُ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 15.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(5) الأصفهاني، المفردات: (سبح).

المَعاش[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، أي: تصرُّفًا في الحوائجِ، وإقبالًا وإدبارًا وذَهابًا ومَجيئًا، أو فَراغًا للحاجاتِ بالنَّهارِ[2].

2) ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾: (بتل): أصلٌ يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ[3]، وإبانتِهِ مِنْ غيرِهِ[4]، وهي كلمةٌ توصَل بالبَتِّ، تقول: أعطيتُه بَتًّا بَتْلًا، والبَتول: كل امرأةٍ تَنْقَبِضُ عن الرجال، فلا حاجة لها فيهم ولا شَهوة، ومنه التَبَتُّل وهو تَرْكُ النِّكاح[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: صدقةٌ بَتْلةٌ، أي: منقطعةٌ مِنَ المالِ إلى سبيلِ اللهِ[6]، والتَّبتُّلُ: الانقطاعُ عن النِّكاحِ، والعَذراءُ البتولُ: هي المُنقطِعةُ عن الرِّجالِ[7]، والمرادُ هنا: انقطعْ بعبادتِكَ إليهِ تعالى، ولا تُشرِكْ بهِ غيرَهُ[8].

3) ﴿وَكِيلٗا﴾: (وكل): أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِكَ في أمرِكَ[9]، والوكيلُ: الموكَّلُ[10]، ووَكَلْت الأمرَ إليه وكْلًا مِنْ بابِ (وَعَدَ) ووُكولًا، فَوَّضْتُهُ إليْه، واكْتَفَيْتُ بِهِ، و(الوَكيلُ) فَعيلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّهُ مَوْكولٌ إليْه، ويَكونُ بِمَعْنَى فاعِلٍ؛ إذا كانَ بِمَعْنَى الحافِظِ[11]، ومعنى ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾: فاتَّخِذْهُ قائمًا بأمورِكَ، أوْ كَفيلًا بما وعدَكَ[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّ لكَ في النَّهارِ فراغًا طويلًا، وتصرُّفًا في شؤونِ المَعاشِ، واذكُرْ ربَّكَ على الدَّوامِ بأنواعِ

عـبـادةُ الـلـهِ والتَّـوكُّـلُ عليهِ حِرْزُ المؤمنِ

(1) الجوهري، الصحاح: (سبح).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 42.
(3) الخليل، العين: (بتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بتل).
(5) الخليل، العين: (بتل).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (بتل).
(7) الأصفهاني، المفردات: (بتل).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 44، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 310.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(10) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وكل).
(11) الفيومي، المصباح المنير: (وكل).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.

الذِّكرِ، وانقطِعْ إليهِ بالعبادةِ انقطاعًا دونَ سائرِ الأشياءِ، فهو ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهما مِنَ العالَمِ، لا ينبغي أنْ يُعبَدَ إلهٌ سواهُ، فاتَّخِذْهُ وكيلًا، وفوِّضْ إليهِ جميعَ أمرِكَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الفصلِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ لتعليلِ الأمرِ بالقيامِ في اللَّيلِ[2]، فيفيدُ توكيدًا للمحافظةِ على قيامِ اللَّيلِ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُغني غَناءَهُ، وهو على هذا استئنافٌ بيانيٌّ، ويحتملُ أنْ يكونَ تلطُّفًا عن تكليفِهِ بقيامِ اللَّيلِ، وفيهِ إرشادٌ إلى أنَّ النَّهارَ ظرفٌ واسعٌ؛ لإيقاعِ ما عسَى أنْ يُكلِّفَهُ قيامُ اللَّيلِ مِن فُتورٍ بالنَّهارِ؛ لينامَ بعضَ النَّهارِ، وليقومَ بمهامِّهِ فيهِ، وهو على هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، ويجوز أنْ يكونَ تعليلًا لِما تضمَّنَهُ قولُهُ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: إنْ نقصتَ مِنْ نصفِ اللَّيلِ شيئًا؛ لا يَفُتْكَ ثوابُ عملِهِ، فإنَّ لكَ في النَّهارِ مُتَّسعًا للقيامِ والتِّلاوةِ[3]، وهو على هذا استئنافٌ بيانيٌّ.

النَّهارُ لا يُغني غَناءَ اللَّيلِ في القيامِ

سِرُّ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾:

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِهِ؛ تحريكًا للنُّفوسِ لاستثمارِ النَّهارِ في قضاءِ الحاجاتِ[4]، فهو كافٍ لقضائها؛ فلا تأخذْ من اللَّيلِ له.

سَعَةُ النَّهارِ حَرِيَّةٌ بالاعتناءِ

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبيرِ بها في ﴿لَكَ﴾:

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكَ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاقِ، فتفيدُ بضميمةِ ذِكْرِ كافِ الخطابِ تقويةَ التَّأنيسِ والتَّخفيفِ مِنْ ثِقَلِ الأمرِ بقيامِ اللَّيلِ؛ لدلالتِها على وجودِ منافعَ في النَّهارِ ترجعُ للمكلَّفِ.

منافعُ النَّهارِ كثيرةٌ للمكلَّفِ بقيامِ اللَّيلِ

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 686 - 689.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 384.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 263 - 264.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾: على أنَّ النَّهارَ محلُّ السَّبْحِ الطَّويلِ، وأنَّ فيهِ سَعَةً كثيرةً للسَّبْحِ الطَّويلِ؛ وأنَّ للإنسانِ أنْ يَقْضيَ مِن النَّومِ فيه ما يُخفِّفُ عنه التقلُّبَ والتَّصرُّفَ في المُهِمَّاتِ والمشاغِلِ، ففيه إبلاغٌ في طلبِ تحقيقِ ذلكَ السَّبْحِ الطَّويلِ، ولو قيل: (بالنَّهار) بالباءِ؛ لَما كانَ ذلكَ.

النَّهارُ محلٌّ وسيعٌ للسَّبْحِ الطَّويلِ

دلالة تعريف ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

تعريفُ النَّهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾: للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفرادِهِ، ففي كلِّ نهارٍ سَبْحٌ طويلٌ، وفي العمومِ الَّذي يشتملُ عليه الجنسُ تحريكٌ لأولي الألبابِ لاستثمارِ كلِّ نهارٍ، بل للاستفادةِ مِن كلِّ ساعةٍ في النَّهارِ.

كلُّ نهارٍ فيهِ سَبْحٌ طويلٌ

علَّة التَّعبير بالسَّبْحِ:

أصلُ السَّبْحِ: العومُ، أي: السُّلوكُ بالجسمِ في ماءٍ كثيرٍ، وهو مستعارٌ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾؛ للتَّصرُّفِ السَّهلِ المتَّسعِ الَّذي يُشبِهُ حركةَ السّابحِ في الماءِ، فإنَّهُ لا يعترضُهُ ما يَعوقُ جَوَلانَهُ على وجهِ الماءِ، ولا إعياءُ السَّيرِ في الأرضِ[1]، وهذه استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، تنظُرُ إلى غرضِ تقريرِ ضرورةِ الصَّلاةِ في اللَّيلِ؛ حيث الهدوءُ والسَّكينةُ، وأمَّا الإنسانُ في النَّهارِ؛ فهو يَهْتَمُّ في سعيِهِ لمصلحةِ نفْسِهِ حتَّى كأنَّه كالسَّابحِ فيما لا عائقَ فيه، فهو شديدُ العزمِ، سريعُ الحركةِ.

غايةُ انشغالِ العبدِ في النَّهارِ يَحثُّه على القيامِ باللَّيلِ

سِرُّ تنكيرِ قوله: ﴿سَبۡحًا﴾:

تنكيرُ قولِه: ﴿سَبۡحًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: سَبْحًا عظيمَ الشَّأنِ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ الغرضِ الَّذي ينظرُ إليه التَّعبيرُ بالسَّبْحِ على ما سبق ذكرُه.

أعمالُ النَّهارِ تستلزمُ تخفيفًا مِن صَلاةِ الأسحارِ

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 519، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 264.

بلاغةُ وصفِ السَّبْحِ بالطّولِ:

النَّهارُ زمانٌ ممتدٌّ للسَّبْحِ

الطَّويلُ وصفٌ مِنَ الطّولِ، وهو ازديادُ امتدادِ القامةِ أو الطَّريقِ أو الثَّوبِ، على مقاديرِ أكثرِ أمثالِهِ، فهو مِن صفاتِ الذَّواتِ، وشاعَ وصفُ الزَّمانِ بهِ، ووصفُ السَّبْحِ بالطّولِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الطَّويلَ هو مكانُ السَّبْحِ، وهو الماءُ المسبوحُ فيهِ، وفي المجازِ إبلاغٌ في تقريرِ سَعَةِ النَّهارِ، وفي قولِهِ: ﴿طَوِيلٗا﴾: ترشيحٌ لاستعارةِ السَّبْحِ للعملِ في النَّهارِ[1].

سِرُّ الوصل في ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

التَّواصُلُ في اللَّفظِ صورَةُ التَّواصُلِ القويِّ في المعنَى

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: معطوفٌ على قولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]، ويَحْتملُ أنْ يكونَ معطوفًا على محذوفٍ يقتضيهِ سياقُ آية: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، والتَّقديرُ: فاجتهدْ في التَّهجُّدِ، واذكُرِ اسمَ ربِّكَ، وسِرُّ الوصلِ بينهما بالواو ما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ، فإنَّ كلًّا مِن الطَّرفيْنِ إنشاءٌ في اللَّفظِ والمعنَى، وحسَّنَ الوَصْلَ كونُ الفعلِ فيهما أمرًا.

دلالة العطف ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

ذِكْرُ اللهِ خيرُ مُعينٍ على مصالحِ الدَّارَيْنِ

الغرضُ مِنْ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ - على ما تُفْهِمُه الآيةُ السَّابقةُ: (فاجتهد في التَّهجُّد) - الحثُّ على حضورِ الفكرِ، ففي ذلك عونٌ للعبد على مصالح الدّارين؛ أمَّا الآخرة؛ فواضح، وأمَّا الدُّنيا؛ فقد أرشد النّبيُّ ﷺ أعَزَّ الخلْقِ عليه فاطمةَ ابنتَه ﵂ - لَمَّا سألته خادمًا يَقيها التَّعَبَ - إلى التَّسْبيح والتَّحْميدِ والتَّكْبيرِ عندَ النَّوْم[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 13، وإرشادُه ﷺ ابنتَه جاء في حديث صحيح، أخرجه البخاري، الحديث رقم: (3705)، ومسلم، الحديث رقم: (2727).

دلالةُ الأمرِ ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

ذِكرُ اللهِ تعالى مطلوبٌ على الدَّوامِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ للدَّوام، أي: ودُمْ على ذكرِهِ تعالى ليلًا ونهارًا؛ وإنَّما حُمِلَ على الدَّوامِ؛ لأنَّهُ ﷺ لم يَنْسَهُ تعالى حتَّى يُؤمَرَ بذكرِهِ سبحانَهُ، والمرادُ الدَّوامُ العُرفيُّ، لا الحقيقيُّ؛ لعدمِ إمكانِهِ[1].

علَّة التَّعبيرِ بالذِّكرِ:

أبوابُ ذكرِ اللهِ كثيرةٌ متعدِّدةٌ

عُبِّرَ بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّهُ يتناولُ التَّسبيحَ، والتَّهليلَ، والتَّكبيرَ، والصَّلاةَ، وتلاوةَ القرآنِ، ودراسةَ العلمِ[2]، فيفيدُ سَعَةَ ذكرِ اللهِ، وتعدُّدَ طرائقِهِ، وهذا العمومُ هو الألصقُ بكثرةِ تقلُّبِ العبدِ وتصرُّفِه في النَّهارِ وسعتِه؛ حتَّى استُعير له السَّبْحُ.

علّة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱسۡمَ﴾:

تعظيمُ الاسمِ تعظيمٌ للمُسمَّى

ذكَرَ القرآنُ كلمةَ: ﴿ٱسۡمَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ المأمورَ بهِ ذكرُ اللِّسانِ، وهو جامعٌ للتَّذكُّرِ بالعقلِ؛ لأنَّ الألفاظَ تجري على حسَبِ ما في النَّفسِ[3]، وللتَّنبيهِ على أنَّهُ إذا عُظِّمَ الاسمُ بالذِّكرِ؛ فقد عُظِّمَ المسمَّى بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وذلكَ عونٌ لكَ على مصالحِ الدّارينِ[4]، وللإنسانِ أنْ يذكرَ اللّهَ تعالى، ويدعوَهُ بما شاءَ مِنَ الأسماءِ الحُسنى[5].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

كمالُ ظُهورِ أسمائِهِ وصِفاتِه تعالى للعبدِ

إضافةُ الاسمِ إلى الرَّبِّ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: لاميَّةٌ، وأسماءُ اللّهِ تعالى الحُسنى كثيرةٌ، وذلكَ مِنْ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 265، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 118.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 13 - 14.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 43، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 380.

علاماتِ عظمةِ المُسمَّى ﷻ، وفي الإضافة إشارة إلى اختصاصِ الاسْمِ محلِّ الذِّكْرِ به تعالى؛ فلا يحتاج إلى إبراز؛ لكونه كذلك بإظهار اللَّام؛ تأسيسًا على كمال ظهور ألوهيَّته وربوبيَّته، وفيها أيضًا تنبيه لطيف على أنَّ للعبدِ مِن وجوه الإحسانِ في ذِكْرِ كلِّ الأسماءِ والصِّفاتِ الَّتي نعرفُها ما لهُ، وهذا لا يتعاند مع بعض الأسماء والصّفات الَّتي ظاهرُها الجلالُ، لا الجمالُ، وأسماؤُه وصفاتُه تعالى كمالاتُه، وكمالاتُه لا تتناهَى.

دلالة العطف ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[1]:

مِن كمالِ الذِّكر الانشغالُ بعظمةِ مَن لهُ الأمْر

لمّا كانَ الذِّكرُ قد يكونُ مع التَّعلُّقِ بالآخر؛ أعلمَ سبحانه أنَّ الذّاكرَ في الحقيقةِ إنَّما هو المستغرقُ فيهِ سبحانه وبهِ يكونُ تمامُ العونِ، فقالَ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[2]، وليكونَ الذكرُ مُرتبطًا ومُقترنًا بالتبتُّلِ والانقطاعِ للّه تعالى، وليس ذكرَ المُنشغلينَ بالدُّنيا وأحوالِها.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾:

الكُمَّلُ ينقطعون إلى اللهِ على الدَّوام

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ مرادٌ بهِ الدَّوامُ، وألّا تخلوَ أوقاتُهُ ﷺ عن إقبالٍ على عبادةِ اللّهِ، ومراقبتِهِ، والانقطاعِ للدَّعوةِ لدينِ الحقِّ، ولم يكن النَّبيُّ ﷺ غافلًا عن هذا الانقطاعِ بإرشادٍ مِنَ اللّهِ، وألهمَهُ أيضًا التَّحنُّثَ في غارِ حراءَ، ثمَّ بما أفاضَهُ عليهِ مِنَ الوحيِ والرِّسالةِ[3].

دلالة صيغةِ التَّفعُّلِ في ﴿وَتَبَتَّلْ﴾:

حاجةُ النَّفسِ إلى مُجاهدةٍ؛ لتنقطعَ إلى اللهِ

التَّبتُّلُ: شدَّةُ البَتْلِ، وهو مصدرُ الفعل: (تبتَّلَ) القاصرِ الَّذي هو مطاوعُ: (بتلَهُ، فتبتَّلَ، وهو في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ للمطاوعةِ المجازيَّةِ التي يُقصَدُ مِن صيغتِها المبالغةُ في حصولِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 266.

الفعلِ، حتَّى كأنَّهُ فعلَهُ غيرُهُ بهِ، فطاوعَهُ[1]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ على النَّبيِّ ﷺ الاجتهادَ في قطعِ نفسِهِ عن كلِّ شاغلٍ، والإخلاصَ في جميعِ أعمالِهِ، حتَّى يصيرَ ذلكَ خُلُقًا لهُ[2].

علَّة التَّعبير بالتَّبتُّل في ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾:

الكُمَّلُ مِن أهلِ الإيمانِ يتميَّزون في علاقتهم بالله

عُبِّرَ بالتَّبتُّلِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ لدلالتِهِ على قطعِ النَّفسِ عن كلِّ شاغلٍ، والإخلاصِ في جميعِ الأعمالِ، ورفضِ الدُّنيا وما فيها، والتماسِ ما عندَ اللهِ تعالى[3]، وهذا هو الألصقُ بحالِ الكُمَّلِ الَّذين يُصلُّونَ باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ، ويَفهَمون القرآنَ، ويذكرونَ اللهَ بالنَّهارِ، معَ إقبالِهِم على مصالحِ الدُّنيا إقبالًا يُشْبِهُ السَّبْحَ.

معنى (إلى)، ودلالة التَّعبير بها:

الغاية النَّفيسة الشَّريفة لا يصل إليها العبدُ بسرعة، وإنَّما بالتَّدريج

كلمة (إلى) معناها انتهاءُ الغايةِ الحِسِّيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، وهي في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ كأنَّهُ انقطعَ عن النَّاسِ، وانحازَ إلى جانبِ اللهِ[4]، وفيها إشارةٌ إلى طولِ الطَّريقِ الَّذي يوصِّلُ إلى رضوانِ اللهِ ومعيَّتِهِ في الدَّارَيْنِ؛ لشديدِ نَفاسةِ الغايةِ المُنْتَهَى إليها.

علَّة التَّعبير بـ﴿تَبْتِيلًا﴾:

الانقطاعُ إلى اللهِ لا يحصلُ إلَّا بتكرارِ التَّبتُّلِ

الظَّاهرُ أنْ يقالَ: (تبتُّلًا)، ولكنْ عُدِلَ إلى: ﴿تَبْتِيلًا﴾، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ لأنَّ معنى (تبتَّلَ): بَتَلَ نفسَهُ، فجيءَ بهِ على معناهُ؛ وفيه موازنة مع الفواصلِ[5]، ولأنَّهُ لمَّا كان معنى ﴿وَتَبَتَّلْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 639، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265 - 266.

﴿إِلَيْهِ﴾: انقطعْ إليه؛ أُقيمَ التَّبتيلُ مقامَهُ، وأُكِّدَ به؛ ليدلَّ على أنَّ ذلكَ الانقطاعَ إلى الرَّبِّ لا يحصلُ إلّا بتكرارِ التَّبتُّلِ، فالتَّبتيلُ يدلُّ على حصولِ الشِّدَّةِ، والتَّبتُّلُ على التَّكرارِ؛ لأنَّ التَّفعيلَ لتكثيرِ الفعلِ[1]، والتَّبْتيلُ هو الألصقُ بحالِ الكُمَّلِ الَّذين كان السِّياقُ مِن أوَّلِ السُّورة لهم، ورأسُهم النَّبيُّ ﷺ، فهو يشيرُ إلى الانقطاعِ إلى اللّه، الَّذي يكون بمجامعِ الهِمَّة، واستغراقِ العزيمة في مراقبته، وحيثُ لم يكُن ذلك إلَّا بتجريدِ النَّفْسِ عن العوائقِ الصَّادَّةِ عن مراقبة اللّه تعالى، وقطعِ العلائقِ عمَّا سواه، قال تعالى: ﴿تَبْتِيلًا﴾، فهو يشير إلى شدَّة الاهتمام، وصعوبةِ المقام[2].

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءَتَي قولِهِ: ﴿رَّبُّ﴾:

قراءةُ الجرِّ تُنْتِجُ قراءةَ الرَّفْعِ

قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحفصٌ وأبو جعفرٍ برفعِ: ﴿رَّبُّ﴾، وقرأه الباقونَ بالجرِّ: ﴿رَّبِّ﴾[3]، أمّا قراءةُ الرَّفعِ؛ فهي على أنَّ ﴿رَّبُّ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، ثمَّ أُريدَ الإخبارُ عنهُ بخبرٍ جامعٍ لصفاتِهِ، وهو مِنْ قبيلِ النَّعتِ المقطوعِ المرفوعِ بتقديرِ مبتدأٍ[4]، وفي القطع معنى تعظيم الرَّبِّ سبحانه[5]، وأمّا قراءةُ الجرِّ؛ فهي على أنَّ ﴿رَّبِّ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾[6]، أو صفةٌ لهُ[7]، على سبيلِ المدحِ، وهذه القراءة تفيد أنَّ كلًّا مِن المشرقِ والمغربِ وما يتعلَّق بهما مِن آثارٍ مِن وجوهِ إحسانِهِ تعالى على عبادِه، "أي: موجِدِ محلِّ الأنوارِ الَّتي بها ينمحي هذا اللَّيلُ الَّذي أنتَ قائمٌ فيه، ويُضيء بها الصَّباح"[8]، ويَنْتُج عن ذلك بيانُ عظمةِ إحسانِهِ تعالى على قراءة الرَّفْعِ والقَطْعِ باللَّفْت إليه.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 95.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 419، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ للعهدِ العِلْميِّ؛ لأنَّ المرادَ بهما الجهتانِ المعروفتانِ، جهةُ شروقِ الشَّمسِ، وجهةُ غروبِها، والغرضُ من التعريفِ بيانُ عَظَمة ذلك الربِّ القادرِ على كلِّ جهةٍ من الجهات، فلا يخرُجُ عن مُلكِهِ شيءٌ؛ بخلافِ تلك الأربابِ الباطِلةِ المُختصَّة بقبيلةٍ دونَ أُخرى وبنصرةِ قومٍ دونَ آخَرين.

بلاغةُ الطِّباق ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

في الجمعِ بينَ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ رعايةٌ لمحسِّنٍ معنويٍّ؛ قصدًا إلى تصوير كمال قدرة اللّه الَّتي ليس كمثلها قدرةُ أحدٍ غيرِه، فيعظمُ إحسانُه تعالى في أبصار المتلقِّين وبصائرهم، وهذا المُحسِّنُ هو الطِّباقُ، فيتصوَّرُ السّامعُ صورةَ جهتينِ متقابلتينِ خاضعتينِ لسلطانِ اللّهِ تعالى: الأولى فيها تجلّي الأنوارِ، والثّانيةُ فيها سطوةُ الظُّلمةِ، وانتشارُها، فالبديعُ نتاجُ المعنَى، ومقتضًى مِن مقتضَياتِ السِّياقِ.

الجهتانِ المتقابلتانِ خاضعتانِ لسلطانِ اللهِ

نكتة التَّرتيب في ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

الظَّاهرُ تقديم المغرب على المشرق؛ تناغيًا مع ما في الآيات السَّابقة، مِن تقديمِ ذِكْرِ اللَّيل على ذِكْرِ النَّهارِ؛ ولكنَّ الآيةَ بُنِيَت على أساسِ خِطابِ المَأمور بقيام اللَّيلِ؛ فكأنَّه في حالةِ التَّلبُّسِ بالقيامِ؛ فأرادَ لفْتَه إلى إحسانِ اللّه سبحانه إلى ما يراهُ عَقِبَ انمحاءِ الظَّلامِ، مِن الصَّباحِ وشروقِ الشَّمْسِ؛ ليُبْصِرَ إحسانَ اللّه في تهيئته للصَّلاةِ في اللَّيل، وفي تهيئته لقضاءِ مصالحِ الدُّنْيا في النَّهارِ، وليكونَ تذكيرًا لمَن يقومُ باللّيل أنَّ للمغربِ ربًّا، كما أنّ للمَشرقِ والنَّهارِ ربًّا، وأنَّ كلًّا من اللَّيل والنَّهار مُستويانِ في العبادةِ ومُراعاةِ ما يَجِبُ للربِّ القادرِ علَيهما، فهو تعالى مَعبودٌ لَيْلًا ونَهارًا.

التَّقديمُ ينظرُ إلى تقرير ضرورة الصَّلاة في اللَّيل

سرُّ تخصيص ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالذِّكرِ:

ذِكْرُهما ينظرُ إلى قيام اللَّيل، والسَّبْح الطَّويل بالنَّهار

خُصَّ المشرقُ والمغربُ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، مع أنَّهُ ﷻ ربُّ كلِّ شيءٍ؛ لمناسبةِ الأمرِ بذكرِهِ في اللَّيلِ، وذكرِهِ في النَّهارِ، وهما وقتا ابتداءِ غيابِ الشَّمسِ، وطلوعِها، وذلكَ يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلى أنْ يأتيَ ضدُّهُ، فيجوزُ أنْ يكونَ المشرقُ والمغربُ جهتَي الشُّروقِ والغروبِ، فيكونانِ لاستيعابِ جهاتِ الأرضِ، أي: ربُّ جميعِ العالَمِ، وذلكَ يُشعِرُ بوقتَي الشُّروقِ والغروبِ، ويجوز أنْ يرادَ بهما وقتا الشُّروقِ والغروبِ، أي: مبدأُ ذينكَ الوقتينِ، ومُنتهاهما[1].

سِرُّ الفصل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الدَّوالُّ على حقِّيَّة ألوهيَّته وإفراده بالعبادة كثيرةٌ

لمّا عُلِم مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾: أنَّهُ سبحانَهُ المختصُّ بتدبيرِ الكائناتِ، المتفرِّدُ بإيجادِ الموجوداتِ؛ كانَ أهلًا لأنْ يُفرَدَ بالعبادةِ وجميعِ التَّوجُّهِ، فقيلَ على سبيلِ النَّتيجةِ والتَّصريحِ باللَّازمِ؛ لما بينَهُما مِن كمالِ الاتِّصالِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، فيكون تفرُّدُهُ تعالى بالإلهيَّةِ بمنزلةِ النَّتيجةِ لربوبيَّةِ المشرقِ والمغربِ، وفي ذلكَ تعريضٌ بالمشركينَ أثناءَ الكلامِ، وإنْ كانَ الكلامُ مسوقًا إلى النَّبيِّ ﷺ[3].

بلاغةُ القصرِ في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أجلُّ ما يُثْمِرُه الإحسان الإلهيُّ الثَّباتُ على إفراد الله بالعبادة

القصرُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: طريقُه النَّفيُ والاستثناءُ، وهو قصرٌ لصفةِ الألوهيَّةِ على اللهِ تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وهو بمنزلةِ النَّتيجةِ؛ لكونِهِ تعالى ربَّ المشرقِ والمغربِ، وإنَّما أكَّد القرآنُ معنى الجملة بالقصر؛ لاقترانها بالدَّليلِ عليها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، وإنّما كان طريقُ القصر (لا وإلَّا)؛ لمراعاة اعتقاد أهل الكفر والشِّرك، فهُم يُنكرون معنى الجملة، فأُكِّدَ لذلك؛ إحسانًا إليهم للاعتدادِ بكفرهم بها؛ تمهيدًا لذكرهم في آية اللحاق القريب: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

معنى الفاءِ ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾:

مَـــنِ اعـتـقـدَ ألـوهـيَّـةَ الـلـهِ، وعرَف إحسانه؛ فـــوَّضَ الأمـــورَ إليهِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للسَّببيَّةِ والتَّرتيب، فتفيدُ أنَّ اتِّخاذَهُ تعالى وكيلًا مسبَّبٌ عن التَّهليلِ، فإنَّ توحُّدَهُ بالألوهيَّةِ يقتضي أنْ توكَلَ إليهِ الأمورُ[1] دونَ تلبُّثٍ وانتظارٍ[2]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ مَنْ لا يُفوِّضُ كلَّ الأمورِ إليهِ، فإنَّهُ غيرُ عالمٍ بحقيقةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، والكلامُ في قوَّةِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ وكيلٍ غيرِهِ؛ إذ ليسَ غيرُهُ بأهلٍ لاتِّخاذِهِ وكيلًا[4]، وفي ترتيبِ ما بعد (الفاء) على ما قبلها ترتيبٌ له على جملة: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، فيكون كونُه وكيلًا للعبد مِن وجوهِ إحسانِهِ إليه.

دلالةُ الأمرِ ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ واجبٌ يُزْغَبُ فيه بشدَّة

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للوجوبِ، فيفيدُ أنَّهُ ينبغي على النَّبيِّ ﷺ أنْ يتَّخذَ اللهَ تعالى وكيلًا، ومِن ورائه أمَّتُه، والبيانُ عن الوجوبِ بصيغة الأمرِ ينطوي على أنَّ المعنَى المأمورَ به مطلوبٌ تنفيذه وتحقيقه بغاية الرَّغبة والاهتمام.

دلالة صيغة الافتعال ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾:

بذلُ غايةِ الجهدِ فـي الـتَّـوكُّـلِ عـلى الـلـهِ شـأنُ المُقَرَّبينَ

جيءَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ يجبُ على النَّبيِّ ﷺ بذلُ قُصارى جهدِهِ في الاعتمادِ على اللهِ تعالى[5]، وذلك هو الألصقُ بحالِ مَن يتقرَّبُ إلى الله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 640، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 557.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 688.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 16.

بالصَّلاة في اللَّيل، وفَهْم القرآنِ وتلاوتِه، وذِكْرِه في كلِّ وقت، وحالِ مَن سيتلقَّى القولَ الثَّقيلَ القرآنَ العظيمَ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾:

تنكيرُ قوله: ﴿وَكِيلًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾؛ للتَّعظيم، أي: وكيلًا عظيمًا، لا وكيلَ سواهُ يُغني غَناءَهُ، وهذا التَّعظيمُ ناظرٌ إلى كونه الإلهَ الحقَّ الحقيقَ بالعبادة وحده؛ لأنَّه ربُّ المشرق والمغرب، فهو نتاج حركة المعنى في السّياق.

ليس كمثل كونه وكيلًا وكيلٌ غيرُه

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"